บทความวิจัย

การปรับทัศนคติต่อการเข้าใจอิสลามสู่การสร้างประชาชาติหนึ่งเดียว

อับดุลรอซาก สุไลมาน มุฮัมมัด อะฮฺหมัด[*]

บทคัดย่อ

บทความฉบับนี้มีวัตถุประสงค์เพื่อแจงความเข้าใจในอิสลามเกี่ยวกับการปรับทัศนคติต่อการสร้างประชาชาติหนึ่งเดียวบนพื้นฐานของสัจธรรมและความยุติธรรม โดยให้ความสำคัญต่อปัจเจกบุคคลซึ่งเป็นพื้นฐานของการสร้างประชาชาติ สร้างความเข้าใจภาระและหน้าที่พร้อมกับเสริมสร้างความรับผิดชอบต่อการปฏิบัติตนสู่การเข้าใจวิถีแห่งมนุษยธรรม การวิจัยครั้งนี้เป็นการวิจัยเชิงเอกสารที่มีการรวบรวมข้อมูลจากการอ่านและศึกษาวิเคราะห์ตามหลักการประวัติศาสตร์และการสังเคราะห์ ผลจากการศึกษามีดังต่อไปนี้

อิสลามให้ความสำคัญกับพัฒนาสติปัญญาของปัจเจกบุคคล เนื่องจากเป็นพื้นฐานของการสร้างประชาชาติที่มีคุณภาพหลังจากถูกบิดเบือนในหลายด้าน

อิสลามได้บุกเบิกความรู้ศาสนา ภาษาและศิลปะที่เป็นพื้นฐานของการปรับทัศนคติต่อการพัฒนาปัจเจกบุคคล

ความสำเร็จของปัจเจกบุคคลในการสร้างสังคมที่อยู่บนพื้นฐานของรากฐานอีหม่าน จริยธรรม และศาสตร์ความรู้ภายใต้ความรุ่งเรืองของอิสลาม

อิสลามได้พัฒนาสติปัญญามนุษย์สู่การเข้าใจวิถีแห่งมนุษยธรรมบนพื้นฐานของการได้รับการดลบันดาลใจที่มาจากพระผู้เป็นเจ้า

ผลจากการพัฒนาสติปัญญาที่อิสลามได้วางรากฐานนั้น สังคมสามารถพัฒนาด้วยการสร้างรัฐบนพื้นฐานของศาสนา การเมือง เศรษฐกิจ สังคมด้วยความเข้าใจอิสลามในรูปโฉมใหม่

อิสลามได้ให้สิทธิ เสรีภาพและความปรารถนาแก่ทุกปัจเจกเพื่อสร้างความเป็นมนุษยธรรม เนื่องจากความจริงคือการสร้างประชาชาติหนึ่งเดียว

ผู้คนหลายระดับได้เข้ารับอิสลามหลังจากภูมิใจกับความหมายของความเป็นมนุษยธรรมจนได้ก่อให้เกิดความเป็นประชาชาติที่ประเสริฐที่ถูกอุบัติขึ้นแก่มวลมนุษยชาติ

คำสำคัญ: ทัศนคติ, ประชาชาติหนึ่งเดียว

---

[*] ดร. (ประวัติศาสตร์อิสลาม), ผู้ช่วยศาสตราจารย์ประจำ คณะอิสลามศึกษาและนิติศาสตร์ มหาวิทยาลัยฟาฏอนี

RESEARCH

Intellectual shift in the light of the concepts of Islam to Ummah al-Wahidah

Abdelrazak *Sulaiman*[*]

Abstract

The aim of this article is to illuminate the new concepts brought by Islam, which caused an intellectual transformation to reform the human mindset to create one Ummah based on truthfulness, justice, and care of the individual as he is the base of the making this Ummah, who is responsible for understanding this concepts and fulfill them in training the spirt of humans. We followed the historical and descriptive methods to collect the data and reading the sources and references, and reached to the following findings:

Islam had cared about the mentality of the individual, because it is the base of the making Ummah, after changing a lot of the previous concepts.

Islam had brought religious, linguistic and literal sciences which took apart in the intellectual transformation of the individual.

In Islam, the individual had succeeded in building a community based on faith, ethics, and knowledge.

Islam had worked to reform the human mind set to rise the human spirit on the divine guidance. Because of intellectual transformation, the community had established a state with political, religious, economic, and social characteristics based on the news concepts.

Islam had granted free will to the individual, which helped in building his humanity and motivated in building of One Ummah.

Islam had freed humanity by the maintaining the meanings of humanity, thus the best nation was created.

Keywords: Intellectual shift, Ummah al-Wahidah

[*] Asst. Prof. Dr. (Islamic History), Lecturer Faculty of Islamic Studies and Law, Fatoni University

المقالة البحثية

التحول الفكري في ضوء مفاهيم الإسلام لتكوين أمة واحدة

عبد الرزاق سليمان محمد أحمد*

*دكتوراه في حضارة الإسلامية، الأستاذ المساعد ومحاضر في كلية الداراسات الإسلامية والقانون وكلية الدراسات العليا، جامعة فطاني

ملخص

يقصد من هذا المقال توضيح المفاهيم الجديدة التي جاء بها الإسلام محدثاً تحولاً فكرياً في إصلاح العقل البشري، والهدف منها تكوين أمة واحدة تسير على معاني الحق والعدل، والاهتمام بالفرد لكونه أساس ظهور هذه الأمة، وتقع عليه مسئولية فهم وتطبيق هذه المفاهيم في تربية النفس البشرية، ونعتمد في جمع وقراءة المعلومات من المصادر والمراجع، وفق المنهج التاريخي والوصفي، وقد توصلت إلى هذه النتائج:

إهتم الإسلام بعقلية الفرد لأنه أساس صناعة الأمة بعدما غير الكثير من المفاهيم لديه .

أبرز الإسلام علوم دينية ولغوية وأدبية ساهمت في التحول الفكري عند الفرد.

نجح الفرد في ظل رسالة الإسلام من بناء مجتمع يقوم على دعائم الإيمان والأخلاق والعلم.

عمل الإسلام على إصلاح العقل البشري من أجل تربية النفس الإنسانية على قاعدة الهداية الربانية.

ونتيجة للتحول الفكري الذي أحدثه الإسلام استطاع المجتمع المتحول من إقامة دولة لها طابع ديني وسياسي واقتصادي واجتماعي من مفاهيم الإسلام الجديدة.

أعطى الإسلام الحرية والإرادة للفرد فساعدت على بناء إنسانيته وكانت الدافع في بناء الأمة الواحدة.

اعتنقت البشرية دين الإسلام عندما احتوى على معاني الإنسانية فتكونت خير أمة أخرجت للناس.

الكلمات الأهمة: التحول الفكري، أمة واحدة

مقدمة

الإسلام دين الله الخاتم ورسالته الخالدة والتي جاءت خاتمة لكل الرسالات السماوية وخالدة إلى يوم القيامة، وجاء الإسلام مؤكداً على معاني الحق والعدل والخير التي تضمنتها الرسالات السابقة، وباعثاً لها من جديد بعد أن غفل الناس أو ضلوا عنها وتركوا العمل بمقتضاها لأنها كانت مخالفة لأهوائهم ومصالحهم المادية، وقد احتوت رسالة الإسلام على تشريعات جديدة صالحة لكل زمان ومكان معطلة للشرائع السابقة حيث كان يؤمن بها أصحاب الأمم الماضية لأنها كانت حقاً ولكن أبطل العمل بها لأن شريعة الإسلام كانت أتم وأكمل الشرائع.(فروخ،1984م،ص75).

كما احتوت تعاليم الإسلام بعدة مفاهيم جديدة لتهيئة الإنسانية لمرحلة الرشد الكاملة، فجاء للتعامل مع البشر وفق مبدأ العدل، ولكن على أساس الإهتمام بالفرد ككائن له خصوصية في التفكير والاهتمام والاتجاه، ويأتي هذا الاهتمام بالفرد لكونه لبنة الإسلام الأولى، فهو يسلب منه كل ما علق في ذاكرته من أمور مخالفة لروح الإسلام، وفي نفس الوقت أقر الإسلام على خصال حميدة كانت منتشرة قبل الإسلام بعد أن هذبها وجعلها تتماشى وفق قيم الحق والعدل، وعلى ضوء ذلك ألغى الإسلام كل العادات والاعراف والممارسات التي كانت تؤسس لمجتمع الفوضى والجهل لأنها لا تتلاءم مع نص وروح الإسلام.(جابر،1423ه/2003م،ص54).

فكانت هذه الأسس عامل وحدة بين أفراد الأمة الإسلامية الواحدة ابتداءً من العرب في شبه الجزيرة العربية وأطرافها، وعامل وحدة روحية بين اتباع الدين الإسلامي على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وتباعد ديارهم، ثم عامل وحدة لجميع الذين يجمعهم اللسان العربي، لأن بفضل القرآن الكريم حُفظت اللغة العربية الفصحى، وبفضل القرآن الكريم والحديث النبوي نشأت علوم دينية ولغوية وأدبية ونتاج فكري عام، فأصبح الإسلام أساس الثقافة المؤدية لتكوين الأمة الواحدة، فتحولت الحضارة العربية إلى الحضارة الإسلامية، لأن الإسلام بنظر المسلمين عقيدة وشريعة وحضارة ومثل عليا تبني جماعة واحدة.(الرفاعي، 1419ه/1998م،ص10).

من جانب آخر جعل الإسلام في العرب والأمم الأخرى خاصية مميزة في أخلاقها قادتها إلى العمل الصالح، حيث وحد بين مقاصدها ووجهها إلى هدف واحد، لأنهم آمنوا بما جاءهم في القرآن الكريم وفهموا أحكامه وطبقوا مبادئه، وماهي إلا أياماً معدودات حتى هذّبت مدرسة محمد بن عبد الله من نفوس أفراد هذه الأمة، وأنشأت منهم رجالاً أصبحوا في عقلهم وعدلهم قدوة لمن جاء بعدهم على توالي القرون والأحقاب.(كرد علي،1968م،ص143).

نلاحظ مما ورد أن الإسلام جعل من العقل حكماً على اعتناق الدين الإسلامي والإيمان بأسسه وغاياته، فهو يسمو بعقل الإنسان وترتقي بالعلم والعمل به ونشر الخير بين أفراد الأمة، كما دعى الإسلام للنظر في الكون لاستنباط سننه والاهتداء إلى الإيمان بخالقه الذي سخره لأجل هذا الفرد لبناء مجتمعات تقوم

على أسس الإيمان والأخلاق والعلم، وأيضاً يدعو إلى التدبر والتأمل في آيات خلق الله ليكون الإيمان بالله على عقل وبينة استجابة لما ورد في الأيات القرآنية أفلا تتفكرون، أفلا تعقلون.

لذلك يوجه الإسلام الطاقة العقلية إلى التأمل في حكمة الله وتدبيره، فالتأمل هذا ليس مقصوداً في ذاته، ولكن لأجل إصلاح العقل البشري، وإقامة الحياة في الأرض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنيين في بنية الكون وبنية الحياة، فبالحق يربي الإسلام النفس البشرية، ويعمق في شعورها الإحساس بالحق حتى يصبح هو العقيدة ويصبح هو الحياة، من أجل ذلك يهتم الإسلام بقيادة الحس البشري إلى طريق الحق والعدل والهداية في حياة الإنسان، ويجعل هذا التدبر جزءاً من العقيدة.(قطب، 1421ه/2001م،ص79).

ومن المعلوم أن الإسلام يقوم على ركنين هما العقيدة والعمل، وتسمى العقيدة بالإيمان، وأصل العقيدة الإيمان بوحدانية الله، قال تعالى:{قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً احد}(سورة الإخلاص)، أما الأعمال فهي العبادات التي يجب على المسلم القيام بها، كالصلاة والصوم والحج والزكاة، ومع هذا فالإسلام ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب بل هو سلوك خلقي قويم، إذ يدعو إلى طهارة النفس من كل ما علق بها من شوائب وأدران.(ضيف،1963م،ص:11).

وعندما فهم المسملون الأوائل مبادئ الدين الجديد عملوا على رفع الظلم عن عاتق الفقراء والمحرومين الذين تكونت منهم طبقة العبيد في مجتمعات العصور الماضية، والذين ذاقوا ألوانا وصنوفاً من العذب على أيدي أسيادهم كما يدعون، ولكنهم وجدوا في الإسلام ما كانوا يفتقدونه وهو إعادة الامل إليهم وحفظ حقوقهم، فرجعت الثقة في نفوسهم، وأصبحوا سواسية مع الذين كانوا يضطهدونهم في كل الحقوق والواجبات، والدافع الأول من ذلك هو تأسيس مجتمع إسلامي عالمي فاضل تسود فيه العدالة والمساواة والإخاء والرحمة والسلام.(بري، 1404ه/1984م،ص:84).

وقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرضن قال تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة}(سورة البقرة/30)، كما فضل الله الإنسان وكرمه، قال تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم}(سورة الإسراء/70)، وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان هي حماية إلهية له، تحتوي على أبعاد مختلفة كاحترام حريته وعقله وفكره وإرادته، وهذه الكرامة إشارة لتحمل الإنسان أمانة التكليف والمسؤولية، قال تعالى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان}(سورة الأحزاب/72)، وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم وجعله مكلفاً ومسؤولاً، فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء، قال تعالى: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}(سورة الجاثية/13)، فالتفكير والنظر في ملكوت السماوات والأرض بالاستفادة من هذه المسخرات سيؤدي إلى الرقي المادي، وفي نفس الوقت إلى الرقي الروحي.(السائح،1415ه/1994م،ص119).

بذلك كان للإسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر معتنقيه، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أشياء أخرى، فانخفض إله القبيلة وإن اتسع سلطانه، وارتفع عندهم إله العالمين ومدبر الكون،

فاستطاع الفرد المسلم بذلك أن يرقى لفهم إله خالق الكون وما فيه من مخلوقات لا مثيل له، ثم عرف أن الإسلام خير الأديان، وأنهم ورثته في هداية الأمم، وعليهم الخضوع لله رب العالمين والانقياد لأوامره، وإخضاع منافع الفرد والمجتمع لمبادئ هذا الدين، فكان ذلك من العوامل المساعد لإبلاغ رسالة الإسلام للمجتمعات الأخرى والدعوة لهذا الدين والتبشير به، ومن دخل فيه كان كأحدهم.(أمين،1978م،ص75).

ونجد ذلك في وصف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن تلك الفترة حيث قال: "ثم إن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وعلى آله بالحق، وجعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته، وكرامة لأمته، ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقا لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون)(الرضي،1408ه/1988م، ج1،ص:463).

يظهر مما سبق أن الإسلام جاء لتطهير النفس البشرية مما أصابها من شوائب العهود السابقة له، واتجه بها إلى الخير والفضائل، فأخذ كل ما يوافق تعاليمه ونبذ ما يخالفها، ليجعل النفوس تستمر في ما كانت عليه بما يناسب الإسلام بمفاهيم جديدة، فهو يأخذ ويعطي كل ما في مصلحة الفرد ومن ثّم الإنسانية، ومعنى ذلك أن الإسلام لم يسلب كل ما كان من أمور مخالفة لروح الإسلام، بل حرّم كل ما فيه ضرر للإنسان، لأن الإسلام جاء لإرجاع الحقوق لأصحابها، وكذلك لم يهمل الجانب الخُلقي في الإنسان، وهو يمثل السلوك الذي يجب على الفرد المسلم إتباعه بكل ما ورد فيها من نظم وهي حقوق العباد تجاه بعضهم البعض، والغرض من ذلك تكوين مجتمع إسلامي توطد فيه دعائم الأمن والسلام، وتشاع فيه المحبة والاستقرار، وتنتشر فيه الفضائل، ويكثر فيه المعروف، ويعرف فيه الحق، فتكوين هذا المجتمع بدأ بالفرد الذي أحدث فيه الإسلام تغييراً شاملاً بتغيير مفاهيمه، فاكتسب عقلاً راشداً استطاع أن يؤسس مجتمع يسير على الحق، فكانت الأمة الإسلامية الواحدة، فالإسلام أوجد هذه الأمة التي بدأ تكوينها بمكة المكرمة وأكملها بالمدينة المنورة، وشمل هذا التغيير المفاهيم التالية:

من الوثنية إلى التوحيد

عبد الناس قبل الإسلام العديد من الأصنام وهي عبادة لغير الله، فكانوا يفدون من مكان لتقديم القرابين لهذه الألهة، وهم على دراية تامة أنها ذات نفع لهم في مختلف شؤون حياتهم، فكانت عبادتهم ترتبط بالمادة، ولا يرى الفرد سوى ذلك، فيسجد أمامها ويطلب مشورتها في تجارة أو حرب أو نكاح، ويستسقي بها وينحر عندها، وعند ظهور نور الإسلام وانتشار تعاليمه رأى هذا الإنسان عدم الجدوى من عبادة حجر ينحته بيده وينصبه لنفسه لا ينفع ولا يضر، فاتجه بعقله وقلبه إلى عبادة الله الواحد الأحد، فوصل إلى درجة عالية من العمق والتفاني في سبيل نشر هذا الدين والدفاع عنه، بعدما فهم المبادئ والتعاليم التي نادى بها، ولعل أن ينال من وراء ذلك إحدى الحُسنيين إما النصر لدين الله وانتشاره، وإما الشهادة والفوز بلقاء الله تعالى واستقراره بجنة الفردوس.(شلبي،1994م، ج6،ص:39).

وبهذا يعتبر التوحيد جوهر الإسلام، ونفي كل الألهة المضلة التي كانت تتحكم في مصير الإنسان، وتحريره من العبوديات الزائفة كلها، وإطلاق روحه تعمل بكل طاقاتها، فهي متحررة من كل قيد زائف، متقيدة في نفس الوقت بمنهج الله وأوامره، التي يتحقق بها خير الدنيا وسعادة الآخرة، والعبودية لغير الله تعالى تستهدف جزئية واحدة من نفس الإنسان وتهمل بقية الكيان، أما العبودية لله تعالى وحده فهي العبودية الحقة لأنها تتجه إلى رب العالمين الذي لا إله غيره، وهي تكُرم الإنسان، وتحرر النفوس من داخلها فتصبح قوة كونية فاعلة في واقع الحياة، ولها أثر واضح في سلوك النفس الداخلية، وبالتوحيد تتوحد في الوقت ذاته أشياء كثيرة في كيان الإنسان وحياته، فيتوحد المادي والمعنوي، ويتوحد العمل والعبادة، ويتوحد الجسد والروح، وتتوحد الدنيا والآخرة.(قطب،مرجع سابق،ص:57).

لذلك يرفض الإسلام أي واسطة بين الإنسان وخالقه، فجعل الاتصال بينهما اتصالاً مباشراً، بعد أن أحكم الفوارق بين الألوهية والنبوة، وكرّم الإنسان بإشاعة المُثل في نفسه والحكمة في تصرفه، وأنقذه من العبوديات التي تجر إلى عبادة أحد غير الله، ومنها عبادة المال والجاه والبشر وغير ذلك، فإذا تحرر الإنسان من هذه العبوديات بإمكانه أن ينصرف بكامله إلى الحقيقة الإلهية، فلا يتعبد إلا بها ولا يلتزم إلا بأوامرها، في نطاق من المساواة التامة بين جميع البشر، فالخضوع لله تعالى والامتثال لإرادته ومشيئته والالتزام بما أمر به ونهى عنه، في كل ذلك خروج على المألوف ونبذ للتقليد السائد، تمهيداً إلى العبور الكبير على جسر الحق إلى ما فيه سعادة الإنسان وأمنه واستقراره.(جابر،مرجع سابق،ص:23).

يمكن القول مما سبق أن الإسلام أحدث تحولاً في عقلية الإنسان، التي كانت تتجه قبل الإسلام إلى عبادة غير الله، وهذا ما جعله في تلك الفترة يتخبط في الفتن، ويقترف كل أنواع المفاسد دون وعي وإدراك لذهاب عقله في الضلال المبين، وما أن أطل فجر الإسلام بتوحيد الله في العبادة، حتى سارع العديد منهم لاعتناق هذا الدين الجديد للخلاص من ذل العبودية المادية التي كان يؤمن بها، ويتحرر من شوائب الماضي، ويطهر نفسه من كل ذنوبها، لمعرفته حقيقة الإسلام.

وعند إدراك عقل هذا الإنسان الجديد بحقيقة هذه العبادة، تساوى أمامه كل شيئ فتوحد عنده المادي والمعنوي، فحين يطلب المادة وفق تعاليم الإسلام يشعر بالإطمئنان المعنوي لعدم مخالفة أوامر الله، كما توحدت عنده العبادة والعمل، فإذا كان العمل لابتغاء وجه الله، وفائدة للبشر يصبح حينئذٍ عبادة، وأيضاً توحد الروح والجسد، فشعرت الروح بالسكينة حيال ما يقوم الجسد من أفعال أقر بها الإسلام فتم الاتحاد بينهما، أما توحد الدنيا والآخرة فنتج عنه كون الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر، فأفعاله في الدنيا جزاؤها الإحسان في الآخرة.

فإذا توحدت هذه الأمور وارتبطت في نظر هذا الإنسان أصبحت معاني الدين راسخة في نفسه وفكره، وأعطاه ذلك الدافع الدعوة لهذا الدين والمجاهدة في سبيله والانتصار له والعمل على نشره، حيث أنه دين جاء ختاماً للشرائع السابقة وناسخاً لها جامعاً لأحكام الدنيا والآخرة.

وهكذا نجد أن التحول الذي طرأ على حياة إنسان ذلك الزمان لم يحدث إلا بعد اقتناعه بمبادئ الدين الجديد وانتصاره له وإيمانه بأنه حقق مصالحه، وكان من نتائج هذا التحول والإيمان بهذا الدين أن نجح بفكره الجديد في تأسيس دولة إسلامية تقوم على أساس تعاليم الإسلام وشرائعه.

من السيف إلى المسالمة

انتشرت في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام صفة الحروب المتكررة، ومن أسبابها كانوا يتنافسون على شرف الرياسة، أو يتنازعون أماكن تصلح لرعي حيواناتهم، أو تكون رداً لغارة أو طلباً لثأر قديم، فتلك كانت أبرز الدوافع لهذه الحروب، وكثيراً ما كان أحدهم ينصر قومه إذا سمع النداء دون أن يعلم سبب النُصرة، وذلك لاعتقادهم أن صفات الضعف والجبن من مظاهر الذلة عندهم، فلا بد من عمل يوضح أخذ الثأر وإن تغير الناس وتبدل الزمان، ويطال الثأر كل أفراد الأسرة.(الجبوري،1388ه/1968م،ص:64).

لذلك تخضع القبائل في تلك الفترة لقانون الأخذ بالثأر والمفروض على الكبير والصغير، فهو شريعتهم المقدسة، ولا يستطيع أحد من أفراد القبيلة أن ينقض هذا القانون أو يخرج عليه أو يقف ضده، فكانوا لا يفرغون من دم إلا وبدأوا دمٌ آخر، فأصبح ذلك سُنة من سنن حياتهم، فإذا قتل فرد من قبيلة شُهرت سيوف العشيرة بمؤازرة من العشائر الأخرى للأخذ بثأرها، أدى ذلك لازدياد اشتعال الحروب لكثرة الثارات بينهم، حتى قضت على الحرث والنسل، ومع ذلك لا يرضون بأخذ الدية لوقف القتال لعدم استبدال الدم بالإبل وألبانها، ويعتبر ذلك ذل ما بعده ذل، فأصبح سفك الدماء غريزة من غرائزهم ، لذا يدخل أفراد القبيلة في تضامن شديد الوثاق، فينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً يسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم.(أمين، مرجع سابق، ص:10).

كما تعد القبيلة كتلة واحدة يشترك جميع أفرادها في الأخذ بثأر من قُتل من أفرادها، وما على الفرد سوى السمع والطاعة.(شاكر،1405ه/1985م،ج1،ص:94).

لذا جاء الإسلام بمفاهيم جديدة من شأنها تغيير السلوك السائد في الحروب المتكررة التي كانت بين بني البشر، فبدأ يُضعف من شأن القبيلة ويُحل محلها فكرة الأمة، قال تعالى: {وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون}(سورة المؤمنون/52)، فهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي، فتوحد الناس بالرابطة الدينية وترك الرابطة القبلية، فأول ما فعله الإسلام لتقوية هذه الرابطة أن نقل حق أخذ الثأر من القبيلة إلى الدولة، وبذلك انتهت سلسلة الحروب والمعارك الدموية، فأصبح لزاماً على القبيلة أن تقدم القاتل لأولي الأمر حتى يجد جزاءه، فمضى الإسلام في القضاء على العصبية القبلية، قال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}(سورة الحجرات/13)، وبذلك تصبح أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير، يسودهم البر والتعاطف.(ضيف، مرجع سابق،ص:19).

وبعد أن كان يحتكم الرجل إلى السيف في أموره دون وعي وإدراك وينصر أخاه ظالماً او مظلوماً، لم تظهر حادثة اعتدى فيها مسلم على غيره أو دافع عن ظالم، وكان رائدهم في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقد أوذي بألوان متعددة من العذاب دون أن يرد عن نفسه أذى بأذى، وكذلك أصحابه واتباعه لم

يقابلوا اعتداء باعتداء بل صبروا حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة وبالدفاع عن أنفسهم بقوله تعالى: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير}(سورة الحج/39)، وهذا ماحدث لأفراد القبائل التي كانت تُشعل الحروب لأقل الأسباب ولعدد من السنوات.(شلبي، مرجع سابق،ج6، 41).

هكذا جاء الإسلام مطهراً للنفس الإنسانية من العادات السيئة التي كانت منتشرة بينهم ومنها الحروب المتكررة، فوضع حداً لهذا الأعمال ، ثم بين حقوق الأفراد وواجباتهم التي يجب التمسك بها والحفاظ عليها، وذلك لأجل بناء مجتمع أسلامي جديد وبالتالي تكوين أمة واحدة.(فاعور/ناطور،1403ه/1983م،ص:62).

نستطيع القول أن الإسلام أوجد عقلية في العرب تتسم بالانضباط، بدلاً عن عقلية الفوضى التي كانت منتشرة حينئذٍ، فمن مظاهر الفوضى عندهم جعلهم السيف قاضياً فيما بينهم للفصل في منازعاتهم، وخاصة النزاع بسبب الثأر، فأدى إلى حروب بين القبائل لا نهاية لها، إلا أنه وبظهور الإسلام توقفت هذه الحروب، لأنه شرّع لهم القوانين التي تقضي على أسباب الفتن من جذورها، فأول ما أنزله الله عليهم قوله: {ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق}(سورة الإسراء/33)، قال القرطبي في تفسيره: ولهذا الحق أمور: منها مانع الزكاة وترك الصلاة، وقد قاتل الصديق مانعي الزكاة،(القرطبي،1387ه/1967م، ج7، ص:133)، ثم أوضح القرآن جزاء القاتل في الآخرة قال تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها}(سورة النساء/93)، وبهذا الحق أرجع الإسلام الأمور إلى نصابها، وأدى ذلك لتعاون الجميع على فعل الخير والتنافس فيه.

أما مسألة عدم رد الأذى عن المسلمين الأوائل حتى ذاقوا صنوفاً من أشكال العذاب، فإن ذلك يرجع إلى ضرورة منع الفوضى في المجتمع، فعندما زاد عددهم وقويت شوكتهم، أخذوا في الدفاع عن أنفسهم بعد أن أذن الله لهم بذلك، فلم يكن بهم ضعف أو جبنٌ وإنما كان انتصاراً حتى يأتيهم حكم الله، فكان هدفهم تطبيق شرع الله على أنفسهم منذ اعتناقهم للإسلام، وترسيخ مبدأ الانقياد والامتثال لأوامر الإسلام فيما يخص جميع جوانب الحياة، وكل ذلك لأجل تكوين أمة مثالية تعمل على تنفيذ المنهج الذي حدد لهم، وبهذا كان الاحتكام لقانون الإسلام من لوازم الحرية والأمن والاستقرار في المجتمع.

من القوة إلى القانون

انتشرت صفات سيئة قبل الإسلام جعلت الحياة عبئاً ثقيلاً لا يُحتمل، كالظلم والقتل والسطو، واغتصاب القوي للضعيف، فلم يجد الفرد الحياة الآمنة المستقرة في ذلك الوقت، لخضوع المجتمع لمنطق القوة، فلم يكن البقاء إلا للأقوى، فجاء الإسلام وهذّب من طبيعة النفس الإنسانية، فنهى عن كل تلك الشرور، وحدد العقوبات لكل جريمة من هذه الجرائم بالإضافة إلى عذاب الآخرة، فأتى بالقانون الذي يُصلح للطبيعة البشرية في كل زمان ومكان.(الفقي،1990م،ص:77)

ويجب أن ندرك أن قانون الأرض ينبع من الطبقة الأقوى لحماية مصالحها، ذلك للتمييز بينها وبين الطبقات الضعيفة من ناحية، وأيضاً لتحقيق منافعها على حساب الآخرين، بينما شريعة الإسلام تنبع من وحي السماء، وتتساوى فيها جميع الطبقات والأفراد لكونهم عِباد الله، فهي نظام يطبق على الجميع ولأجل الجميع،

ولا يحابي أحداً على حساب أحد، فالحاكم والمحكوم والغني والفقير والشريف والوضيع جميعهم سواسية أمام قانون الشريعة، وهذا يثق كل صاحب حق في هذه الشريعة لأنها تكفل له حقوقه فيدافع عنها ولا يرفضها أو يخرج عنها.(قطب،مرجع سابق،ص:86)

كما يجب أن نعلم أن الإسلام يعطي الحرية والإرادة للفرد، وهما من مقومات شخصيته، ولكن يجب أن يكون استقلال الشخصية في المحافظة على هذه المقومات، وفي دفع عوامل الانحراف، لأن انحراف الإنسان يتمثل في اتباع الهوى، وهو مسلك فاسد وسلوك غير مستقيم، والإسلام إذ يمنح استقلال الشخصية للفرد يطلب في نفس الوقت ابعاد الهوى الذي هو مصدر كل شر وعبث، ويريد أن يبقى الإنسان إنساناً تبدو عليه مظاهر الإنسانية الخالصة في الاعتقاد الصحيح والحكم العدل والسلوك المستقيم.(البهي، 1389ه/1970م،ص:164)

نلاحظ مما سبق أن القوة كانت تعتبر الدستور الذي عاش عليه الفرد قبل الإسلام، والجميع يخضع لهذا الدستور، وبموجبه لا يسأل أحد من أفراد الشعب فيما يفعل أصحاب النفوذ والسلطة في المجتمع، وعلى ضوء الحرية التي كانت سائدة والتي يتمتع بها الفرد في ذلك الوقت يتصرف كما شاء، فلم يأمن أحد على حياته، وبذلك انعدم الاستقرار.

ومع ظهور الإسلام طبق القانون الذي يحاكم به الفرد في حال ارتكابه لجرائم تؤدي إلى اضطراب حياة الآخرين وتنشر الرعب بينهم، قال تعالى: {إنما جزاؤا الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض}(سورة المائدة/33)، وبترول هذه الآية تكون القوة التي لا تستند إلى العقل والشرع قد انتهت، لأن الإسلام يسعى لاستقرار المجتمع ونشر السلام فيه.

كذلك منح الإسلام الحرية والإرادة للفرد، ولكن ليست كالتي كانت في عهد ما قبل الإسلام، فهذا الحرية مقيدة تمنع الفرد من الانجراف وراء المعاصي التي حرمها الله تعالى، فهذه الحرية تؤدي إلى إنسانية الفرد، باتباع الخلق القويم مما يحافظ على قوة شخصيته، فتصبح الدافع للوحدة القوية في بناء الأمة.

من نظام الطبقات إلى المساواة

تتكون المجتمعات قبل الإسلام من عدة طبقات: طبقات رفيعة ذات مترلة ومكانة عالية، ثم تتلوها طبقات أخرى أقل درجة ومترلة، حتى تأتي الطبقة الدنيا التي تمثل قاعدة لهرم هذا المجتمع وسواد الناس، وهذه الطبقات شبه مغلقة بمعنى يمنع الاختلاط مع بعضها عن طريق التزاوج والتصاهر، وذلك بسبب الفوارق المترلية التي تفصل بينهم.(كرد علي، مرجع سابق، ج4،ص:284)

ولذلك تتبع كل طبقة مهنة محددة، تناسب وضعها ومكانتها، فطبقة الأشراف والأغنياء وهم سادة القوم وأصحاب المكانة الرفيعة في المجتمع تمتلك الأراضي الواسعة للزراعة والمال الوفير للتجارة، وبهذا تكون صاحبة السلطان والقوة إصدار الأحكام، ثم طبقة الفقراء الذين لا يملكون شيئاً وهم أجراء عند ملاك الأراضي، ومع ذلك لا يجدون منهم رحمة أو شفقة، فهم محرومون من مال الله، فاعتقدوا أن من حقهم أخذ

مال هؤلاء الأغنياء عن طريق القوة، وهم أفضل حالاً من طبقة العبيد الذين يمثلون الطبقة الأخيرة في المجتمع، وهذه الطبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الإنسان الحُر من ممارستها، ويتصرف صاحب العبد به كتصرفه في ماله الخاص، والعبد ليس له حق الاعتراض.(أحمد،1982م،ص:69)

فكان الفرد في السابق يخضع لنظام الطبقات ويؤمن به ويسير على هديه، وينظر إلى المجتمع على أنه طبقات متفاوتة تبعاً للدم والنسب، وعند ظهور الإسلام أعاد تكوين هذا المجتمع فرفض مبدأ الطبقات وأبدله بعامل التقوى والعمل الصالح(شلبي، مرجع سابق،ج6،ص:48)، قال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}(سورة الحجرات/13)

هكذا أرسى الإسلام هذه القاعدة الاجتماعية التي قضت على العصبية ونبذت كل الفوارق الطبقية بين الأفراد، بما في ذلك فوارق الشرف والسيادة، فالناس جميعاً سواء في الحقوق والواجبات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: "يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، خيركم عندي أتقاكم، إن الله عليم خبير"(ابن حنبل،1411ه/1991م،ج5،ص:411)، وبذا أصبح المجتمع أسرة واحدة يسودها البر والتعاطف، وتكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير، وكل فرد فيها لا يعيش لنفسه بل يعيش لأجل الجماعة.(ضيف،مرجع سابق، 19)

نرى مما ذكر أن الأفراد يتفاضلون على بعضهم حسب وضعهم في المجتمع، وهذا الأسلوب نتج عنه الظلم والقسوة وعدم الشعور بالكرامة لامتهان الفرد فيها، فمن المؤكد أن أصيبت الطبقات الدُنيا بالقهر والاحتقار والمذلة، ولم تجد وسيلة غير العنف لا استرداد حقوقها المهضومة،، وبالتالي انعدم الاستقرار في هذا المجتمع.

وهذا ما حدا بالطبقتين الأخيرتين الدخول في الإسلام طواعية، لإقرار الإسلام بالمساواة بين الجميع، ونستنتج من إحلال المساواة محل الطبقات في التكوين الاجتماعي، هو الذي صدّع طبقات المجتمع وهدد أركانه، لأن المساواة تؤدي إلى تكوين مجتمع ينعم بالاستقرار وينتشر التعاون بين أفراده، وتُشاع بينهم الألفة والأخوة.

من حياة النهب إلى حياة الأمانة

عاش الأفردا قبل الإسلام حياة حربية، وكانوا على شكل مجموعات تحمل معها أسلحتها إما لتدافع عن نفسها، أو لتغير على غيرها، فتُسبي النساء وتنهب الأموال من الإبل وغيرها، ويُعد السلب والنهب من الفروسية قبل الإسلام، ثم ظهرت جماعة قطاع الطرق عرفت بإسم الصعاليك، وقامت حياتهم على السلب والنهب.(ضيف،مرجع سابق،ص:336)

وذكر ابن خلدون في مقدمته أسلوب النهب والسلب حيث قال: "فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه، فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في

حفظ أموال الناس وخرب العمران، وإنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً، فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد" (ابن خلدون،1413ه/1993م،ص:118)

من جانب آخر يعزى سبب هذه الغارات لأجل السلب والنهب إلى ازدياد عدد هذه الجماعات المتفلتة نسبة إلى ضيق المساحات الصالحة للاستقرار التي يقيمون فيها، أو بسبب إصابتهم بجدب الأرض، فيضطرون إلى الزحف إلى أراضي يستقر بها غيرهم، فيشنون عليهم الغارات، ويستولوا عليها عنوة.(الشامي،1398ه/1978م،ص:38)

فبعد ظهور الإسلام اشتملت تعاليمه تغيير كثير من المفاهيم الخاطئة، بمفاهيم جديدة ومنها مفهوم الأمانة، فقد حث المسلم على أن يتبع في معاملاته المحافظة على الأمانة في حديثه وفي فعله وفي حفظه لأموال الآخرين.(عيسى،1402ه،1982م،ص:42)

قال تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها}(سورة النساء/58)، يرى القرطبي من هذه الأية أنها عامة لجميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات، وتتناول من دونهم الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه، والصلاة والزكاة وسائر العبادات امانة الله تعالى.(القرطبي،مصدر سابق،ج5،ص:256)

روى مسلم في صحيحه أن إمرأة مخزومية سرقت متاعاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أهلها يستشفعون لدى الرسول ليسقط عنها العقوبة، فغضب عليه الصلاة والسلام من هذه المحاولة، ثم قال: "أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد، أما والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها" (أبومسلم، 1421ه/2001م، ج3،ص:668)

وروى أبيّ بن كعب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك"(الترمذي،(د.ت)،ص:564)

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل علينا رجل من أهل العالية، فقال: أخبرني يا محمد عن أشد شيئ في هذا الدين وألينه، فقال له: يا أخا العالية: (ألين شيئ في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأشد شيئ يا أخا العالية الأمانة ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى)(البزار، 1409ه/1988م،ج3،ص:61)

روى الطبري عن هبيرة بن الأشعث عن أبي عبيده العنبري، قال: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض "الغنائم" أقبل رجل بحُق معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكن احمد الله

وأرضى ثوابه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو عامر بن قيس.(الطبري، 1407ه/1987م، ج2،ص:465)

يتضح مما ورد مدى التطور والتحول الذي أحدثه الإسلام في عقلية البشر، فقد نقلهم من حياة النهب إلى حياة الأمانة، فوضع الإسلام الأمور في نصابها، وأوضح للمسلم التكاليف الشرعية التي يجب اتباعها ويهتدي بها، ومن تلك التكاليف الأمانة التي رسخت في قلب المسلم وعقله بعد ارتباطها بشرائع الدين، لذلك حافظ عليها المسلمون وعملوا بها، وبهذا دخلوا في وصف الله تعالى لهم بقوله: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)(سورة المؤمنون/8).

من الإباحية إلى الطهر

انتشرت آفات سيئة بين البشر قبل الإسلام ولعل أهمها شرب الخمر ولعب الميسر واستباحة النساء، فكانت هذه من مظاهر الحياة عند الأفراد، وهي من المتع التي يكمل بعضها البعض، وكان في ذلك الوقت يتألف المجتمع من نوعين من النساء: إماء وحرائر، وكان عدد الإماء كثير جداً، وكان منهن العاهرات يتخذن الاخدان، وفتيات يضربن على المُزهر، وغيرهن يعملن في حوانيت الخمارين.(الجبوري،مرجع سابق،ص:70)

وتنصب البغايا على أبوابهن رايات ليعرف مكانهن، ومنه نكاح الخدن، وقد أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: {محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان}(سورة النساء/25)، وكانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم.(كرد علي،مرجع سابق،ج1،ص:132)

لذلك تأثر الرجل في العهود الماضية بالفسوق والإباحية المنتشرة من حوله، وكثيراً ما يحصل منها بحظ وافر، وذلك لكثرة الروايات التي تبيح تلك الفواحش المملوءة بالإغراء والإثارة ومن ذلك الأشعار التي تنادي بذلك، فجاء الإسلام بتعاليم غيرت مجرى حياة هذا الرجل فألبسه حُلة من الطهر والعفة، فأصبح يغض الطرف ويبعد عن مواطن الزلل، وإذا استدرجه الشيطان وارتكب الفاحشة سارع الإعتراف بذنبه والمطالبة بتطهير نفسه تكفيراً عما ارتكبه من ذنب.(شلبي،مرجع سابق،ج6،ص:47)

يروي الإمام مسلم عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله (إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني)، فرده الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما كان من الغد أتاه فقال: (يا رسول الله إني قد زنيت)، فرده الرسول ثانية، وأرسل إلى قومه يسألهم: أتعلمون بعقله بأسا أو تذكرون منه شيئاً؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وافر العقل، فأتاه الثالثة فرده الرسول، وأعاد السؤال عنه فأخبر أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفرت له حفرة ثم أمر به الرسول فرجم.(مسلم،مصدر سابق،ج3،ص:672)

وفي ذات السياق يروي الإمام مسلم ما فعلته المرأة الغامدية التي جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لتقول له: يارسول الله إني قد زنيت فطهرني، فردها الرسول، ولكن قالت: إني حملت من الزنا، فقال لها الرسول: إذهبي لتلدي ثم ترضعيه فتطعميه حتى يفطم، فجاءت به وفي يده قطعة خبز، فأخذ الرسول الولد

ودفعه لرجل صالح وأمر بها فرجمت، وكان من بين من رجموها خالد بن الوليد فتطاير رشاش من دمها عليه فسبها، فقال له الرسول: مهلاً يا خالد، فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم امر فصلى عليها ودفنت.(المصدر السابق)

يظهر مما ذكر انتشار العادات السيئة بين الأفراد قبل الإسلام، ويعزى ذلك إلى اتباع عبادة الأوثان، ثم الفراغ الذي أحدثته الطبيعة القاسية في عهد الجاهلية، بالإضافة إلى قول الشعر الذي يزين من اتباع تلك العادات، كذلك لعدم وجود قانون يردعهم، مع تقبل الناس لمثل هذه الأمور وعدم محاربتهم لها.

إلا أنه وبظهور الإسلام تخلصت البشرية من هذه الدنايا والرذائل، لأن الإسلام تناول هذه الآفات بكثير من التفصيل، وأوضح للناس الضرر الذي يصيبهم في حال إتيانها، فالإسلام حرم كل مفسدة، وترك كل ما فيه مصلحة للعباد، ففي شأن الخمر والميسر قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون}(سورة المائدة/90)، أما في مسألة استباحة النساء قال تعالى: {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا}(سورة الإسراء/32).

فنرى من ذلك أن الخمر يذهب بالعقل، والميسر يُضيع المال، والزنا يؤدي إلى فساد الأنساب باختلاط المياه، فحرمها الله على الناس لأنها تؤدي إلى المفسدة، والهدف من ذلك ليأمن المجتمع ويصبح شريفاً عفيفاً، يسعى للفضائل، فبلغ الطهر بالفرد درجة من السمو يندر أن يوجد لها مثيل، وبهذا يكون مجتمعاً قادراً على حمل رسالة الإسلام إلى الآخرين، وتكوين أمة واحدة.

من الانزواء إلى الانتشار

عند ظهور الإسلام في شبه جزيرة العرب، كان الناس ينقسمون بين العرب في شبه الجزيرة، والروم في بلاد الشام، والفرس في بلاد العراق، والحبشة في بلادهم، وكانت الفرس والروم تنظر للعرب نظرة إزدراء واحتقار، بسبب ما سمعوا عنهم من غاراتهم المتكررة على بعضهم لأجل السلب أو النهب، أو الإغارة على العدو للحصول على شيئ من الغنائم لأجل الرزق، ويعلمون فقر جزيرتهم، وجدب أرضهم، وفي نفس الوقت كان العرب يخشون مواجهة الفرس أو الروم نسبة لقوتهما في ذلك الوقت.(شاكر،مرجع سابق، ج2،ص:332)

ونرى استعلاء وترفع الفرس في رسالة شهريار قائد الفرس إلى المثنى بن حارثة الشيباني الذي قاد جيوش المسلمين لغزو بلاد فارس قال فيها: [إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس، إنما رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم].(الطبري،مصدر سابق،ج2،ص:344)

ولكن تغيرت النظرة بعد أن بعث خالد بن الوليد برسالة إلى ملوك الفرس يقول فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى ملوك الفرس أما بعد، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم ووهن كيدكم، وفرّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم، فأدخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة".(المصدر السابق، ج2، ص:321)

من ذلك دبّ الرعب في قلوب الفرس والروم، ويظهر ذلك عندما عبر جيشا الفرس والروم نهر الفرات حيث جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، فقالت الروم والفرس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، والله ليُنصرن ولنخذلن، ثم لم ينتفعوا بذلك، وكانت تلك المعركة في الفراض.(المصدر السابق، ص:328)

فخروج هؤلاء القوم من بلادهم لأجل تبليغ الدعوة الإسلامية انطلاقاً من قوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل ما بلغت رسالته}(سورة المائدة/67)، لذلك أرسل الرسول الوفود والرسل إلى الملوك والحكام الذين يقيمون خارج شبه الجزيرة العربية، نستلهم ذلك من بما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: {أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله}(البخاري،1420ه/2000م، ج1،ص:26)

فخرجت الجيوش تلو الجيوش لأجل تبليغ الدعوة الجديدة للأمم الأخرى، وكان ذلك في سبيل اعلاء كلمة الله، فالجيش الذي خرج تحت قيادة عبد الله بن رواحة يشجعهم ويقول لهم: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس.(الطبري،مصدر سابق، ج2،ص:150)

يظهر مما سبق أن الجيوش الإسلامية خرجت من شبه الجزيرة العربية إلى نشر الإسلام خارجها، فاستخدمت في ذلك سلاح الإيمان، فبعد أن كانوا متروين في بلادهم، بدّل الإسلام من حالهم ورفع من شأنهم، وخلق منهم رجالاً استطاعوا أن يقلبوا موازين القوى لصالحهم، ويحطموا عروش أكاسرة الفرس وقياصرة الروم في مدة وجيزة، وفتحوا البلاد، وهكذا انتهت رهبة هذه الدول وزالت من نفوس المسلمين، فكانوا على استعداد دائم لملاقاتهم وفي آن واحد، وكان معينهم في ذلك قول الله تعالى: {ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً}(سورة النساء/74)

فالتحول الذي طرأ على أهل شبه الجزيرة العربية نتيجة لتمسكهم بمبادئ الإسلام والعمل على تطبيقها بينهم ونشرها للآخرين، واجتازوا كل الصعاب التي واجهتهم في سبيل إعلاء كلمة الله، والدافع لهم وعدهم بنصر من الله، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}(سورة محمد/7)

فبتأييد من الله انتقل المسلمون من نصر إلى نصر، فنتج عن ذلك دخول أعداد غفيرة من الناس في الإسلام من مختلف الشعوب، وكان لهذا الأثر البالغ في نفوس المسلمين ورفع معنوياتهم، ونعتقد أن الارتباط الوثيق والاستقرار اللغوي السبب المباشر في توحد المسلمين، لما وجدوا من يوحدهم بظهور الإسلام الذي أخرجهم من حال الضيق إلى الرحب والسعة، لما في ذلك من دواعي الطمأنينة والرحمة، التي أدت لقيام مجتمع جديد يتسم بالاستقرار والأخوة والتضامن، ونتيجة لهذا عرف كل فرد من أفراد المجتمع الجديد حقوقه وواجباته تجاه الآخرين وتجاه مجتمعه، وتضامنهم هذا كان تطبيقاً لقول الله تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعاً

ولا تفرقوا، وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً}(سورة آل عمران/103)

وهكذا حمل أهل شبه الجزيرة العربية هذه الأفكار وخرجوا بثوبهم الإسلامي الجديد، فهو الذي قدمهم إلى الناس وبه عرفوا، وميزهم عن غيرهم، فالإسلام جعل لهم خاصية في أخلاقهم قادتهم إلى العمل الصالح، ووحد بين مقاصدهم ووجهها إلى هدف واحد، توحيد الله وإقرار العبودية له، وبهذا أصبحوا سادة على غيرهم، بعد أن كانوا عبيداً في نظر الفرس والروم.

كما استمدوا القوة اللازمة من الإسلام والتي أعانتهم على تحمل المسئولية في نشره ببقاع الأرض المختلفة، لما وجد الفرد في هذه القوة الإيمانية من تكريم وإحساس بالإنسانية، فالإسلام جمعهم بعد تشتت، وأخى بعد فرقة، وهذّب بعد فوضى، وأعز بعد ذلة.

وصف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإسلام بقوله: "ثم إن هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، وأصفاه غير خلقه، وأقام دعائمه على محبته، أذل الإديان بعزته، ووضع الملك برفعه، وأهان أعداءه بكرامته، وهدم أركان الضلالة بركنه جعل الله فيه منتهى رضوانه، وذروة دعائمه، وسنام طاعته، فهو عند الله وثيق الأركان، رفيع البنيان، منير البرهان، مضئ الميزان، فشرفوه واتبعوه وأدوا إليه حقه، ووضعوه مواضعه".(الرضي،مصدر سابق،ج1،ص:462)

ومن خلال تلك المفاهيم الجديدة للإسلام نبع مجتمع تميز فيه الفرد بالروابط المتينة والشعور بالخصائل الحميدة تجاه بعضهم البعض، فتأسس هذا المجتمع على:

الإخوة

يشعر المسلم منذ أن يعتنق الإسلام ويدخل الإيمان في قلبه أن المسلمين جميعاً أخوة له، قال تعالى: {إنما المؤمنون إخوة}(سورة الحجرات/10)، فأصبحت الإخوة أشد أواصر الارتباط بينهم، فلا رابطة تجمع هؤلاء إلا الإسلام أينما كانت ديارهم ومهما كانت قومياتهم ولغاتهم، وأنه بدخوله في الإسلام يكون قد اكتسب جنسية جديدة.(شاكر،مرجع سابق،ج2،ص:117)

يبدو من ذلك أن الإسلام جعل من المسلم إنساناً مختلف عما كان في السابق، فقد جمع بينهم وجعلهم أخوة في الدين والعقيدة، وهذا أرفع من أخوة الدم والنسب التي ضاقت دائرتها عند حدود صلة القرابة ومع عوامل ضعف قوتها أمام عوامل الخصام والبغضاء، بخلاف أخوة الدين التي اتسعت دائرتها لتشمل كل مسلم وتقوي رابطتها وتتسم بالخير والمعروف والإحسان وغير ذلك مما حض عليه الدين الإسلامي.

التعاون

بنى المسلمون مجتمعهم بالتعاون بين أفراده، ومقومات هذا البناء شرائع الإسلام وأحكامه، وتمثل التعاون في الجانب الروحي والمادي للإنسان، لذلك حث الإسلام كل مسلم ومسلمة بأن جعلوا التعاون سمة من سمات معاملاتهم فيعين بعضهم بعضاً، في أوجه الحياة المختلفة المباحة شرعاً، كما حث المسلمين على زيادة

تعاونهم في أعمال البر، (عيسى، مرجع سابق، ص:20)، قال تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}(سورة المائدة/2)

بهذه الكيفية يخلق التعاون الترابط بين الأفراد، والتضامن لأجل استقرار المجتمع وإشاعت المحبة بين الجميع، ومن خلالها ينتبه كل فرد للعمل والبناء كلٌ في موقعه، إذن يتم التعاون عن طريق الإيمان، الذي هو أساس العلاقة والارتباط بين المؤمن وأخيه المؤمن، وهو الدافع لنشوء علاقة الرابطة بين أفراد المجتمع والتآخي بينهم على نحو ترتفع فيها الأنانية الفردية وطغيانها وتسود فيه المعاونة والمشاركة لخيرهم جميعاً.

الطاعة

بعد أن جمع الإسلام البشرية في مجتمع واحد شعروا بوجود قائد واحد لهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطاعته واجبة لكونه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}(سورة النساء/64)، لذلك تجب طاعته بصفته رأس المجتمع وقائده، وهو الذي أسس قواعد الدعوة، فالمسلم لا يتصرف إلا بإذنه، فإشارته أمر، ورغبته فرض يجب تحقيقها، وكذلك تجب طاعة الأمير فهو يمثل رئيس المجتمع الإسلامي ما دام يقيم فيهم حدود الله، فهو بهذه الصفة يكون قائماً على تنفيذ شرع الله فيمن تولى أمرهم.(شاكر،مرجع سابق، ج2،ص:122)

إذن الطاعة من الإيمان، وهي كل ما يوافق الإسلام من عبادات ومعاملات بين الأفراد، فالطاعة تجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما فيها من سعادة الجماعة وسعادة الأفراد إذا ظلوا متمسكين بما فيها من مُثل وقيم ومبادئ.

الشعور

يشعر المسلمون جميعاً أنهم يشكلون مجتمعاً خاصاً بهم، ولو كانوا متفرقين في مناطق متعددة، ولكن كل فرد يشعر أنه يؤدي واجباً معيناً تجاه مجتمعه الإسلامي، فهو متكامل لأن كل عضو فيه يؤدي مهمته المكلف بها لأداء وظيفته، فامتاز هذا المجتمع بأنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم بالشعور، وكلهم إخوة متساوون، بهذه الواجبات يتكامل البناء الاجتماعي، ويسير نحو الأفضل ويقترب تدريجياً من الكمال.(شاكر،مرجع سابق، ج2،ص:117)

نرى من ذلك السياق أن الشعور شكّل بين أفراد المجتمع هيئة تشبه الجسد الواحد في التكوين، وتشبه العقل في التدبير، فكل فرد يصاب يشعر الجميع به ويعينوه في مصيبته، بسبب شعور الأفراد تجاه بعضهم بالعطف والمودة والرحمة، مما أدى إلى التجانس والتكافل في القيام بأعمال الخير، والصبر والاحتساب عند البلاء والمحن، فنتج عنه الاستمرار في الحياة بروح الإيمان مع عدم اليأس، فهذه عوامل النجاح في الحياة في كل طور من أطوار حياة الإنسان.

الخاتمة

تعتبر تلك نماذج لما في المجتمع الإسلامي، والتي دلت على مدى التحول الذي حدث للفرد في ظل مبادئ الإسلام، الفرد الذي نبذ حياة الطبقية والعصبية والقسوة والوحشية ، فتحول بفكره لحياة المساواة والسماحة والخضوع للقوانين، فسارت حياته في جو من العدالة والتراهة والتي تحمسوا لها واختلطت بدمائهم، لما وجدوا فيها من النعيم المقيم، فساروا على هديها، وهكذا حمل هؤلاء الأفراد مبادئ الإسلام والأخلاق الفاضلة، إلى كافة بقاع الأرض فاعتنق الناس أفواجاً هذا الدين لما وجدوا فيه كل معاني الإنسانية، ويرجع الفضل في ذلك للهدي الرباني ثم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم الفريدة في صفاتها، والتي هي خير قدوة يقتدي بها المسلمون.

النتائج

بعد أن سردنا وقائع التحول الفكري الذي أحدثه الإسلام في عقلية البشر مكّوناً لأمة واحدة، توصلنا إلى النتائج التالية:

-إهتم الإسلام بعقلية الفرد لأنه أساس صناعة الأمة بعدما غير الكثير من المفاهيم لديه .

-أبرز الإسلام علوم دينية ولغوية وأدبية ساهمت في التحول الفكري عند الفرد.

-نجح الفرد في ظل رسالة الإسلام من بناء مجتمع يقوم على دعائم الإيمان والأخلاق والعلم.

-عمل الإسلام على إصلاح العقل البشري من أجل تربية النفس الإنسانية على قاعدة الهداية الربانية.

-ونتيجة للتحول الفكري الذي أحدثه الإسلام استطاع المجتمع المتحول من إقامة دولة لها طابع ديني وسياسي واقتصادي واجتماعي من مفاهيم الإسلام الجديدة.

-أعطى الإسلام الحرية والإرادة للفرد فساعدت على بناء إنسانيته وكانت الدافع في بناء الأمة الواحدة.

-اعتنقت البشرية دين الإسلام عندما احتوى على معاني الإنسانية فتكونت خير أمة أخرجت للناس.

المصادر والمراجع

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1413ه/1993م.

أبو مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1421ه/2001م.

أحمد، مصطفى أبو ضيف. **دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 1982م.

أمين، أحمد. **فجر الإسلام**. ط12. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1978م.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**. ضبطه صدقي جميل العطار. ط1. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1420ه/2000م.

البزار، أبو بكر أحمد بن عمر. **البحر الزخار المعروف بمسند البزار**. تحقيق محفوظ الرحمن. ط1. دمشق: مؤسسة علوم القرآن. 1409ه/ 1988م.

البهي، محمد. **الإسلام في حياة المسلم**. القاهرة: دار الفكر العربي. 1379ه/1970م.

الترمذي، محمد بن علي بن الحسن. **صحيح الترمذي**. بيروت: دار الكتاب العربي. (د.ت).

الجبوري، يحيى. **الجاهلية**. بغداد: مطبعة المعارف. 1388ه/1968م.

الرضي، الشريف. **نهج البلاغة**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط1. بيروت: دار الجيل. 1408ه/1988م.

الرفاعي، أنور. **النظم الإسلامية**. ط1. دمشق: دار الفكر. 1419ه/1998م.

السايح، أحمد عبد الرحيم. "الإسلام والحضارة". **مجلة الإسلام اليوم**. (العدد12. الرباط.1415ه/1994م).

الشامي، أحمد عبد الحميد. **في تاريخ العرب والإسلام**. الدوحة: مطابع سجل العرب. 1398ه/1978م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**. ط2. بيروت: دار الفكر. 1407ه/ 1987م.

الفقي، عصام عبد الرءوف. **معالم التاريخ الإسلامي**. القاهرة: دار الفكر العربي. 1990م.

القرطبي، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد. **الجامع لأحكام القرآن**. ط3. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. 1387ه/1967م.

بري، عبد الله. **العرب والإسلام**. ط1. بيروت: دار التعارف للمطبوعات. 1404ه/ 1984م.

جابر، قاسم حبيب. **الإسلام بين البداوة والحضارة**. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1423ه/2003م.

شاكر، محمود. **التاريخ الإسلامي**. ط4. بيروت: المكتب الإسلامي. 1405ه/1985م.

شلبي، أحمد. **موسوعة الحضارة الإسلامية**. ط8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1994م.

ضيف، شوقي. **العصر الإسلامي**. ط6. القاهرة: دار المعارف. 1963م.

عيسى، عبد النبي غالب. **أداب المعاملة في الإسلام**. الخرطوم: دار الصحافة للطباعة والنشر. 1402ه/1982م.

فاعور، أحمد وشحاتة ناطور. **تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولي**. 1403ه/ 1983م.

فروخ، عمر. **تاريخ الجاهلية**. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. 1984م.

قطب، محمد. **منهج التربية الإسلامية**. ط15. القاهرة: دار الشروق. 1421ه/2001م.

كرد علي، محمد. **الإسلام والحضارة العربية**. ط3. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1968م.